

موازنة أدبية

بين فصيلتين من هيبود الشعر الجاهلي

الاستاذ عبد المنعم خفاجي

١ - أما الأولى فهي معلقة : عمرو بن كلثوم النخعي الشاعر الجاهلي المشهور (٥٠٠ - ٦٠٠ م) . وطلعا .

ألاهي بصحنك فاصبحينا ولا تنق خور الأندرينا
وأما الثانية فهي بحيرة أمية بن أبي العتات :
عرفت الدار قد أقوت سنينا لربيب إذ تحمل بها قطينا

٢ - والقصيدة الأولى ملحمة تاريخية تصور المجد القديم لقبيلة الشاعر ، وملاحمها الحربية التي انتصرت فيها على أعدائها ، وهي فريدة في نوعها فهي جذرة حقا أن تسمى ملحمة فهي تاريخ مفصل لقبيلة عمرو ومفاخرها وأيامها ومنها يوم خزاز

أن يجري في الأرض فمل غير انساني مهما كان الأمر . والمسئولية تأتي من هذه الناحية ، ناحية الانسانية التي تنصف بها الأفعال والوقائع وما جريات الأمور ، ومن هنا لم يكن هناك محل للاعتذار أو الأسف أو الشكوى بعد إتيان أمر من الأمور

إن فلسفة في الأخلاق على هذا النحو لا تتلق الباب أمام الرجاء ولا تصدر عن اليأس كما قال الكثيرون عنها ، وإنما على العكس من هذا توجد فسحة للأمل وتضع غير قليل من الايمان والقوة في نفس الانسان كما يفعل وكما يأتي فوله عن عقيدة وحساب ويكفي أن يعلم الانسان من نفسه بأنه حر وأنه بهذه الحرية يقرر وجوده الخاص كما يحقق وجود الانسانية جماء ، وأنه يبدأ من لا شيء ليصير شيئا في النهاية ؛ حتى يدرك خطورة موقفه وحتى يعمل بكل قواه في العالم المضطرب الفاض من أجل الوقوف على بر السلام والوصول الى أرض البراءة والخلاص

عبد الفتاح الديري

والظواهر النفسية التي يبدو فيها الانسان ليست عبارة من صفات ممددة إعداداً سابقاً بالنسبة إلينا وإنما هي طريقة من طرائق العمل والحركة داخل نطاق الوجود . فليس هناك العنق بمباشرة ولا أكثر ظهوراً في حياتنا من صفات الحس والذكاء والغضب والحسوية ، ومع ذلك فمذه كلها ليست ضرورة من ضرورات وجودنا بقدر ماهي رسالة من وسائل اكتشافنا للوجود ونحو من أنحاء انتقالنا من الحاضر إلى الماضي .

فوجودنا إذن يحصل ثم نجمل نحن من هذا الوجود موضوعاً للكلام فنستخلص منه صفات معينة ونلاحظ عليه ملامح بالذات . هذه الصفات وتلك الملامح هي ما نسميه بالماهية . ولكننا مع كثرة التكرار والترديد للظواهر المتشابهة في حياتنا حسبنا هذه الماهية أزلية تنتفض على طول الزمن في صورة أشكال من هذا الطراز أو ذاك . ولكن الواقع أن هذه الأشياء إنما تحدث في كل مرة لأول مرة وتأتي مع أطوار الأحداث بغير تقدير ممد ولا خطة قبلية . وبذلك يمتدح طابع الجمود والترديد في الحياة ويتدخل عنصر الفن بشيائه المتباينة . ولا شك أن الفنان وحده هو الذي يستطيع أن يدرك مدى الرهبة التي تصيب الانسان في تقدمه خلال السحب القائمة من فوقه وهي لا تقفنا ننذره من حين إلى حين بالاطر الغزر . فالانسان وسط الحياة ليس غريباً عن مثل هذا الموقف عندما يحس في قرارة نفسه بأنه متروك في الوحدة المزعجة بغير سند إلا من اختياره ورأيه وهواه .

ومن هنا تتدخل المسئولية في اعتبار الوجودية . وذلك طبيعي جداً مادام مرجع الانسان في معاشه إلى ذاته وما دام هو نفسه ابن نفسه ووليد أفعاله . ويقول سارتر « عندما نقول عن الانسان انه مسئول من نفسه ، لسنا نمنى أن الانسان مسئول عن شخصيته المحددة ولكننا نمنى أنه مسئول عن كل الناس . » وهذه هي النتيجة الطبيعية لما سبق أن قلناه . فالانسان تبعاً لما يأتيه في وجوده من الأفعال الحرة مسئول عن العالم وعن نفسه طالما كان طريقة من طرق الوجود ، وأنموذجاً من نماذج الكينونة والمسئولية هنا مأخوذة بمناها العادي في الشعور بأنه الفرد يؤلف لحادثة أو موضوع من غير اعتراض عليه ومن غير تمد على حريته . فما يحدث لي - كما يقول سارتر ... يحدث لي عن نفسي ويستحيل

وما أرسدوه لربب الدهر من الخيل والراح والسيوف والشيب
المجربين والشبان والأقوياء ، ووراثتهم للمجد عن كبرى نزار الى
غير ذلك من مظاهر الكبرياء والبرزة والسيادة التي أضافها أمية
الى قومه ، ولا بدري شيئا عن التاريخ الأدبي للقصيدة وان كنا
نرجح أن الشاعر نظمها في مفاخرة من هذه المفاخرات التي
تحدث كثيرا بين القبائل العربية وخاصة في العصر الجاهلي :

٣ - تتفق القصيدتان في الموضوع والوزن والقافية ، وفي
حيالهما المعنى الغالب على القصيدتين وتتفقان كذلك في هذه المبالغة
الواضحة في الفخر ، مما لا يؤثر نظيرها من المبالغات في معاني
الشعر الجاهلي الا قليلا.

كما تشابهان في هذه السهولة الفنية الغالبة على القصيدتين
وخاصة عند ما ينتقل الشاعران الى الفرض الأصلي من قصيدتهما
وهو الفخر. وليست هذه السهولة الفنية بغريبة على الشعارين ،
فارتجال عمرو ولقصيدته ومواقف الفخر فيها مما يقتضى السهولة ،
ونشأة أمية في الطائف ذات الخصب والزرع والتجار والحواء
المتدل والجو الخليل وتنقله في رحلانة التجارية بين الشام واليمن
وثقافته العامة وقراءته في الكتب السماوية ، كل ذلك رقق من
طبعه وهذب من أسلوبه وأكسبه مواهب فنية ممتازة وسهولة
من ملكاته الأدبية فظهر أثر ذلك في شعره وضوحا وسهولة
واسجاحا.

وتتفق القصيدتان فوق ذلك في كثير من معاني الشعر
وأساليب الفخر ، ومن مظاهر ذلك الاتفاق هذه المعاني والأساليب
والآيات :

١ - قال عمرو :

ورثنا المجد قد علمت مدد نطعن دونه حتى بيننا
أى حتى يظهر الشرف لنا . وقال :

ورثنا مجد علقمة بن سيف .

وقال وهو يتحدث عن الخيول الكريمة التي يخوض قومه
عليها المارك :

ورثناهن من آباء صدق ونورنسا إذا متنا بيننا .
فقال أمية :

الذي انتصر فيه كليب قائد الزاربيين على الجيبيين ، وفيها تهديد
لأعداء تغلب وتنبيه للملك عمرو بن هند ملك الحيرة (٥٦٢ -
٥٧٩ م) حتى لا يطيع بهم الوشاة أو يتحيز لبكر شقيقة تغلب
ومزاحمتها في المجد والنفوذ والسلطان ، وقد بدأها الشاعر بوصف
الجر مما يعد ميزة فريدة لها ، ثم انتقل إلى موضوع القصيدة وهو
الفخر ، وختمها بقوله :

لنا الدنيا ومن أمسى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا
ملا لنا البر حتى شاق عنا رماء البسر نملؤ سفينا
إذا بلغ الرضيع لنا فطاما نخر له الجبار ساجدينا
وأنت تعلم أن عمرو بن كلثوم ارتجى بعض مملقته أمام الملك
عمرو بن هند وهو الجزء الذي حدد فيه أعداء تغلب وحذر الملك
من الاستماع للوشاة والويل معهم على قومه ، ومنه :
أبا هند فلا تمجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقينا
يأتنا نورد الرايات بيضا ونصدرهن محرا قد روينا
ثم أكل القصيدة كلها ، وأشدّها في سوق عكاظ ، وقد
عدتها تغلب سجل مجدها ونفارها فاعتزت بها اعتزازا كثيرا
ويقال إنها أضافت اليها الكثير حتى بلغت آياتها نحو ألف بيت
وقال بعض شعراء بكر فيها :

الحى بنى تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يقاخرون بها مذ كان أولهم يالرجال لفخر غير مسؤول
وأما بحمزة أمية فقد تحدث فيها الشاعر عن مجد قبيلته
« ثقيف » وهى من أمهات القبائل العربية وصاحبة النفوذ
والسلطان في الطائف بين قبائلها ، ولم يبدأها بوصف الجر كما فعل
عمرو بن كلثوم بل بدأها كما يبدأ الشعراء قصائدهم فذكر أطلال
محبوبته « زينب » وعفائها ولعب الرياح المصبرات بها ، ثم
انتقل إلى موضوع القصيدة نفسها وهو الفخر بمجد القبيلة وشرف
الآباء فقال فيها قال :

ورثنا المجد عن كبرى نزار فأورثنا ما آثرنا البينا
وكنا حينما علمت مدد ألقنا حيث ساروا هارينا
وتجبرك القبائل من مدد إذا هدوا سمابة أولينا
يأنا النازلون بكل ثمر وأنا الصاربون إذا لقينا
إلى آخر ما ذكره من الفخر بأسرته وقومه ومجدهم ومنابهم

ورثنا الجدة عن كبرى نزار فأورثنا ماثرنا البنية
ونستطيع أن نوازن بين البيتين الأخيرين إذا علمنا أن وراثته
الجدة في بيت أمية أبلغ في الفخر من وراثته الخليل في بيت عمرو ،
وإن كانت وراثته الخليل من أسباب الجدة لأن الخليل وركوبها
وإنما إذا عتاداً دليل الشجاعة والبطولة وحب الفضل ، وقول أمية
« فأورثنا ماثرنا البنية » أبلغ من قول عمرو : « ونورثها إذا متنا
بنينا » لأن أمية ذكر أن أبناءه ورثوا مجد الآباء في حياتهم ، أما
عمرو فقد ذكر أن الأبناء سيرثون هذه الخليل بعد وفاة آباءهم ، ولم
يسند إليهم الشجاعة والبطولة وحماية القمار في حياة الآباء ، وهذا
قصور في الفخر . وقال أمية « البنية » وقال عمرو : « بنينا »
فشهرم أمية وأبان عن وضوحهم ، وقال عمرو : « آباء صدق »
فدل على شجاعتهم أو وضوح نسبهم وطهارة أعرافهم ، وهي زيادة
لا نظير لها في قول أمية .

وقد أخذ أمية لفظ « قد علمت مدد » من قول عمرو فقال :
وكنا حيناً علمت مدد أقننا حيث ساروا هاربتنا
ب - ويقول عمرو : « وأنا المهلكون إذا ابتليتنا » أي
نهلك أعداءنا ونبيدهم إذا اختبرنا بقتال الأعداء ، فيقول أمية :
« وأنا الضاريون إذا لقينا » فتجد قول عمرو أبلغ حيث نص على
إهلاك الأعداء ولم يذكر أمية إلا الضرب ، وإن كان يكنى به
من الشجاعة والإقدام والمزعة والجدة في طلب الأعداء ، ولكنه
على أي حال لم يصور نتيجة الحرب كما صورها عمرو بن كلثوم
بقوله « المهلكون » .

ج - ويقول عمرو : « وأنا المانمون لما أردنا » ، وروى
« الحاكون بما أردنا » ، فيقول أمية : « وأنا المانمون إذا أردنا »
د - ويقول عمرو :

ونشرب إن وردنا الماء صفواً ويشرب فيرنا كدرا وطنينا
وروى من مجهرة أمية :
وأنا الشاريون الماء صفواً
ه - ويقول عمرو :

بفتيان يرون القتل مجداً وشيب في الحروب مجريتنا
وقد روى من المجهرة :
وفتياناً يرون القتل مجداً وشيباً في الحروب مجريتنا

ه - ومما عمو وتماز بأنها الأصل الذي نسج على منواله
أمية : كما تماز : بدوح أغراضها ، وطرولها ، وأنها ملحمة تاريخية
نادرة ، وهي إحدى المملكات السبع وهي قصائد تحتل القصة في
الشعر الجاهلي . وقد انتخبت من بين القصائد الجاهلية لشهرتها
وخصائصها الفنية والأدبية الممتازة . وقال ابن قتيبة في قصيدة عمرو :
وهي من جيد شعر العرب :

أما قصيدة أمية فلا تبلغ إلا نحو الثلاثين بيتاً أو تزيد قليلاً
فهى نحو ثلاث قصيدة عمرو ، وقد وضعها النقاد مع المجمرات
والمجمرات سبع قصائد من الشعر الجاهلي رواها أبو زيد الأنصاري
في « الجهرة » ، وأصحابها هم :

أ - عبيد بن الأبرص ، ومجهرته مشهورة وهي في الحكمة
ومطامها .

عينك دمعها سرور كائن شاكينها شعوب
والسرور : الكثيرة الجريان . والشعوب : الزادة ، وتشهر
باضطراب وزنها ؛ ومنها :

والراء ما عاش في تكذيب طول الحياة له تمذيب
من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب
ب - عدى بن زيد ، ومجهرته في الحكمة ومطامها :
أنعرف رسم الدار من أم معبد نعم وزمناك الشوق قبل التجلد
وهي شبيهة بمعلقة طرفة في وزنها وقافيتها وحكمها ، وتتفق
مهما في بعض الأبيات مثل :

عن الرملة تسأل ورجل عن قريبه فكل قرين بالفارن يقتدى
ج - النمر بن تواب ، ومجهرته في الحكمة أيضاً ومطامها :
« تأبذ من أطلال عمرة مأسل »

د - أمية بن أبي الصلت ، ومجهرته موضع الحديث ، وهي
في الفخر .

ه - بشر بن أبي خازم ، ومجهرته في الفخر بقومه وطلولتهم
وعزم ومطامها :

لمن الديار غشيتها بالأنم ؟ تمدو ما لها كلون الأرقم
و - خداس بن زهير ، ومجهرته في الفخر بقومه أيضاً ،
ومطامها :

« أمن رسم أطلال بتوضح كالسطر »

ز - عنتره، وقصيدته :

هل غادر الشعراء من مترد أم هل عرفت الدار بمد نوم ؟
يمدها بمض النقاد من الملقات والآخر من الجمهرات .
وهذه القصائد السبع لم توضع في مرتبة واحدة لاتفاق
موضوعاتها ؛ إذ أن موضوعاتها مختلفة : فثلاث منها في الحكمة
وأربع في الفخر ، كما أنها لم ترتب بالنظر إلى الناحية التاريخية ، إذ
أن أصحابها لم يعيشوا في عصر واحد :

فمدى توفي نحو عام ٥٨٠ م ، وعبيد عام ٥٥٥ ، وأميرة عام
٦٢٤ م ، وعنتره عام ٦١٥ م الخ ؛ فهي إذا إنما وضعت في منزلة
أدبية واحدة تلي منزلة الملقات الأدبية بالنظر إلى خصائصها الفنية
الأدبية وحدها ، وبكاد الناقد الأدبي يقف أمام تشابه شاعرية
هؤلاء الشعراء وخصائص الشاعرية في هذه القصائد ؛ فهذه
القصائد السبع إذا يشبه بعضها بعضاً في النواحي الفنية والفطرة
الأدبية وفي خصائص الشعر والشاعرية وتكاد تكون متساوية
في حكم النقد الأدبي ، وهي على أي حال تلي الملقات في الجودة
والمكانة الأدبية .

ونستخلص من ذلك كله أن النقاد لاحظوا الفروق الفنية
الكبيرة بين القصيدتين فوضوا الأولى في صف الملقات والثانية
مع الجمهرات ، وفي الحق أن شاعرية عمرو في مملته أقوى وأبين
من شاعرية أميرة في مجمرته : سواء في الأسلوب أو المعاني أو
الأفراض أو مدى الجودة الفنية ومواهب الشعر .

٥ - ويرى الدكتور طه حسين في كتابه « الأدب الجاهلي »
أنه لا يمكن أن تكون مملته عمرو أو أكثرها جاهلية . وقد شك
الرواة في بعضها ويرجح أن تكون المملته منتحلة ، ونحن لا نذهب
هذا المذهب ، فالمملته تمثل حياة جاهلية لقبيلة تغلب وتمثل شاعراً
جاهلياً وتصور حياة عمرو الفنية والاجتماعية نفسها وهي شبيهة
بالأنثى الباقية من شعر عمرو ، وإن كان هذا لا يفي أن تكون
قد زبدت عليها بعض الأبيات ؛ وقصيدة أميرة نفسها تؤيد أن
قصيدة عمرو جاهلية وأنها لم تنتحل بمد الإسلام على أيدي
الرواة .

ونلاحظ على مجمره أميرة خلوها من الصبغة الدينية التي

اشتهر بها أميرة ، ويبدو أنه نظمها في شبابه قبل أن يقف نفسه
وحياته وشعره على الجانب الديني وحده . وتقليده فيها لعمرو بن
كاثوم يؤكد ذلك وأنها نظمت قبل أن تكتمل شخصية أميرة
الفنية . وقد يكون السبب الذي جعل أميرة ينظم مجمرته محتجاً
فيها عمراً هو إعجابه بمملته أو روايته لشعره أو تشابه موقف
الفخر الذي وقفه الشاعران ، ونحن لا نستطيع أن نقول إن الرواة
أدخلوا على مجمره أميرة بعض الأبيات من مملته عمرو لتشابه
الوزن والقافية والخيال والموضوع في القصيدتين ؛ ذلك لأن مجمره
أميرة ليست طويلة ولأنه إذا حذف منها الأبيات التشابهية
لا يبقى منها في مقام الفخر إلا القليل من أبياتها ، ولا يقل أن
ينظم الشاعر قصيدة في الفخر معانيها فيه محدودة أو شبه
محدودة .

ورواية أبي زيد للقصيدتين في كتابه دليل على إعانه بصحة
القصيدتين أولاً ، وبأن المعاني التشابهية فيهما نتيجة لاتفاق
الشاعرية أو للتقليد الأدبي ثانياً ؛ وأبو زيد م ٢١٥ رابطة ثقة
٦ - وبمد قد استطيع أن يقول إن أميرة قلت في مجمرته عمرو
ابن كاثوم في مملته تقليداً فنياً واضحاً ، فأخذ من المملته كثيراً
من معاني الفخر وأساليبه ، وساغ قصيدته على موسيقى وقافية
مملته عمرو .

وهذا التقليد الفني ليس بمعجب بين الشعراء في شتى المصور
وليس بغريب في الشعر الجاهلي نفسه ، فانت ترى أن الشاعر
الجاهلي كثيراً ما يتفق مع شاعر قبله أو معاصره في أسلوب أو
معنى أو بيت وأنت تعرف قول امرئ القيس :

وقوفا بها صحبي على مطيهم يقولون لا تهلك أسي وتجدل
وقول طرفة

وقوفا بها صحبي على مطيهم يقولون « » وتجدل
وتعرف غير ذلك من مظاهر التشابه الفني أو التقليد الأدبي
بين الشعراء الجاهليين ، مما نستطيع أن نواتيك يبعث أدبي عنه
في القد القريب إن شاء الله

محمد عبد المنعم مناجي

الاستاذ بكلية اللغة العربية